مجلة الرائد

العدد : ١٨٩ الموافق في ذو الحجة ١٤١٧ هجري ٥ / ١٩٩٧ ميلادي

كلمات في الصميم : آثار ضعف التكوين الشرعي	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

تحدثت في لقاء ثقافي عن دور الحركة الإسلامية المعاصرة في إحياء وتجديد كثير من معاني الحق والخير التي جاء بها الإسلام العظيم ، وذكرت على وجه الخصوص تصديها لظاهرة انفصال العلم عن العمل ، وبعد أن ضربت أمثلة على إيجابيات العمل الإسلامي الدعوي ، ذكرت أن هناك أموراً ما تزال في حاجة إلى حُسن فهم شرعي ، مشيراً إلى أن الخلل الذي حصل في فهمها قد رسخ إشكالات فكرية وأخلاقاً عملية خطيرة ، ومثَّلت لذلك بمصطلحين : « البيعة » و « الجماعة » ، فقلت :

لقد وردت نصوص نبوية كريمة تأمر بالحرص على البيعة ولزوم الجماعة ، فجاءت فصائل في الحركة الإسلامية المعاصرة ، فرأت أن تنظيم الجهود لتحقيق الأهداف الكبيرة واجب ، وسمته « العمل الجماعي » ، وأن هذا يقتضي أن يكون هناك عهود تُلزم الناس بالوفاء ، وسموها « البيعة ». وأسقطوا معاني البيعة والجماعة الواردة في النصوص على عهودهم وتنظيماتهم ، واستنتجوا أن على كل مسلم أن يكون في عنقه بيعة ، أي : أن يكون عضواً في تنظيم ، وأن ترك التنظيم خروج من الطاعة ومفارقة للجماعة. وسردتُ بعض النصوص التي يستدلون بها ، من ذلك : ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية** » وهو عند الحاكم بلفظ « **من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه ، ومن مات وليس عليه إمامة وجماعة فإن موتته موتة جاهلية** ».

ثم بينت أن فهم تلك الفصائل الإسلامية لهذه النصوص غير صحيح ؛ لأن البيعة الواجبة الواردة إنما هي بيعة السلطان الحاكم ، فإذا قام حكم إسلامي فإن على كل مسلم أن يدعمه بكل ما أوتي من قوة ، وأن مفارقة الجماعة تعني الخروج على السلطان وتفريق الأمة وإغراقها بالأزمات.

فلما فرغت من حديثي وجاء وقت الحوار ، نهض أخ كريم في العقد الخامس من العمر ، وعلامات الغضب بادية على وجهه ، فقال بنبرة حادة : لقد أمضيت قرابة الثلاثين عاماً في العمل الإسلامي ، وتلقيت العلم والتوجيه على أيدي شيوخ أجلاء وأساتذة معروفين بالفضل ، وكانوا متفقين على وجوب العمل الجماعي ، ويقولون بأن ترك التنظيم كبيرة ، ويصرون على وجوب البيعة ، وكانوا

يستدلون بمثل ما ذكرته من أحاديث البيعة والجماعة ، وما سمعته منك اليوم أذهلني وجعلني أتساءل : هل ما أخذته عن أولئك الأساتذة هو الصواب... أم ما سمعته منك اليوم ؟!.

وأدركت من طريقة كلام الأخ الفاضل أن مشكلته تكمن في مكانة الرجال عنده وليس في مضمون الكلام وحجيته ، فهو قد تربى في جو له أساتذته وموجهوه ، وطبيعي أن يكون لهم في نفسه مكانة سامقة ، وما سمعه في اللقاء قاله زائر لا يعرفه من قبل ، وفهم من كلامه أنه يسفه فهوم رجال مثل أساتذته !. ومن كانت هذه حاله فإنه لا ينفع معه القول : إن عليك أن تناقش ما قلتُ بموازين شرعية مجردة عن ظروف المرحلة ، وعن مكانة الرجال في قلبك. ولاح لي أن الخروج من هذا الاعتراض بسلام ضروري ، فقلت للسائل : أقترح عليك أن تنقل ما سمعته إلى الأساتذة الأفاضل الذين أشرتَ إليهم ، وأنا مطمئن إلى أنك ستجد عندهم جواب سؤالك ، ولكن اسمح لي أن أوضح أمراً يتعلق بموضوع العمل الجماعي : إن الإسلام يأمر المسلمين بالتعاون على البر والتقوى ، فكل عمل صغير أو كبير يحتاج إلى اجتماع جهود لإنجازه ، فإنه يجب على من لهم علاقة به أن يسعوا إلى تنظيم جهودهم ، وأن يوفوا بعهودهم ، فالتعاون والوفاء بالعهود من سمات أهل الإيمان.

❋ ❋ ❋

لقد سقت هذه القصة لأن جوهرها - الجرأة في إسقاط النصوص بغير أهلية على الواقع - ما يزال يتكرر على الرغم من اتساع دائرة التعليم ، وازدياد عدد الكليات والجامعات الإسلامية ، وتوفر وسائل المعرفة بصورة لم يسبق لها مثيل ، وعلى الرغم من الانتشار الأفقي لتيار الصحوة الإسلامية. وهذه الظاهرة تطرح سؤالاً عن الأسباب التي تجعلها متعددة الصور مع اتحاد الجوهر ؟!. وإسهاماً في تسليط الأضواء على الأسباب أشير إلى عدد منها على النحو الآتي :

١- **دور القيادة :** أحفظ عبارتين تُنسب أولاهما إلى الأستاذ حسن البنا رحمه الله تعالى : « **ما أكثر الجنود وأقل القادة** » والثانية قالها محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى : « **المسلمون إلى خير ولكن العيب في القيادة** ». فهاتان العبارتان تشملان صنفين من القيادات :

أ - **القيادة الموهوبة :** وهي التي تشغل - في الظروف العادية - مكان القرار والاختيار عن جدارة ، فإذا وصل إلى قيادة جماعة ما زعامةٌ غنية الأفكار قوية العزيمة ، فإنها تصوغ برنامجاً واقعياً يقوم على مفاهيم ومبادئ واضحة منتجة ، وتسير بالجماعة خطوات واثقة واعدة على طريق تحقيق أهدافها ، أما إذا كانت هذه القيادة فقيرة الأفكار فإن عزيمتها القوية لا تحول الفكرة الهزيلة إلى إنجاز

كبير ، وإذا كانت عظيمة الأفكار رديئة العزيمة ، فإن أفكارها العظيمة لا تجد طريقها إلى الإنجاز الكبير.

ولكي تحقق القيادة الموهوبة برنامجاً سليماً ، فإنها في حاجة إلى توفر عدد مناسب تكون نوعيته جيدة من الصنف الثاني من القيادات ، وهو :

ب- **القيادة الميدانية :** وهي التي تتكون من الموجهين المباشرين الذين يحملون مسؤولية تربية وصياغة وقيادة الأفراد في ساحة العمل الميداني. فإذا كانت هذه القيادة قادرة على فهم الفكرة البانية التي تصوغها القيادة الموهوبة ، وتتمتع بحسن عرضها وقيادة أفراد الجماعة إلى تحقيق أهدافها ، كانت النتائج باهرة ، أما إذا أصيبت هذه القيادة بآفات ، فإن النتائج التربوية والإنجازات تصاب بتشويهات تظهر في الأفراد.

وإن مما يحز في القلب أن الحركة الإسلامية تعاني من نقص في عدد القيادات الميدانية الفاعلة ، ومعظم هؤلاء الفاعلين يشكون من تشويهات يورثونها لمن حولهم... وهم لا يشعرون !!

وإذا المعلم لم يكن عدلاً مشى روحُ العدالة في الشباب ضئيلاً
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حُولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ومن الغرور فسمّه التدجيلا

٢- **ضعف البنية الشرعية :** فإذا نظرنا إلى ظروف نشأة تيار التجديد الإسلامي فإننا نلاحظ بصماتها في فكره وسلوكه ، فقد نشأ هذا التيار نتيجة الاصطدام بالغرب ، الذي نتج عنه تهاوي مؤسسات الأمة المسلمة التي كانت منخورة من داخلها ، ويأتي في مقدمتها المؤسسة السياسية « الخلافة » ، وقامت على أنقاض تلك المؤسسات مؤسسات أخرى تبنت الفكرة الغربية في التشريع والقضاء وسائر شعب الحياة. وكان بدهياً أن ينعكس ذلك على حركة التجديد ، فبرز ما يسميه البعض تيار « الإسلام السياسي » الذي أتقن موضوعات الصراع المباشر مع إفرازات الفكرة الغربية ، ولكنه ظل ضعيفاً في التكوين الشرعي الشامل.

٣- **توقف معظم العاملين عن النمو المعرفي :** ويظهر هذا في :

❋ عزوف عامة التيار الإسلامي عن القراءة والاطلاع بعد مرحلة الالتزام الأولى ، وهي المرحلة التي يعطي الفرد فيها جهداً ملحوظاً من أجل استيعاب الفكرة الإسلامية ، ثم يكاد يتوقف هذا الجهد. وهذا له تأثيراته على رؤية الأمور ، وعلى كيفية التفاعل مع القضايا ، فالذين لا يتابعون الاتصال الحي بمصادر المعرفة تتصلب نظرتهم ، ويرون الواقع المتغير بعيون المراحل المنصرمة.

❋ نفور معظم الفصائل من قراءة ما عند الفصائل الإسلامية الأخرى ، وهؤلاء أشد نفوراً من قراءة فكر المتغربين ، وهذه الأحادية المعرفية تفرض محدودية في النظر إلى الأمور.

نخلص من هذا إلى القول : **إننا نشعر من أعماق قلوبنا بحاجتنا الماسة إلى النهوض المعرفي على مستوى القيادات الموهوبة والميدانية ، وإلى بناء متين للبنية الشرعية لدى الأفراد ، حتى يتمكنوا من التمييز بين الآراء ، وهذا كله يصب في نهر التجديد المعرفي الذي يصوب المفاهيم ويضبط النسب بين الأمور المشروعة ، ويهب قدرة على إنزال النصوص على الواقع بأهلية تجعل المجتهد مأجوراً ، سواءاً أصاب أم أخطأ ، أما اجتهاد القاصر فإنه قاتل ، وصاحبه على خطر كبير.**